﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بَيانُ دَقيقِ عِلْمِ اللهِ تَعالى وإحاطَتِهِ

لَمّا فرَغَ مِن تَأكيدِ ما ذَكَرَهُ لُقْمانُ عليه السلام في الشُّكْرِ والشِّرك، فَعُلِم ما أوتي مِنَ الحِكْمَة، وخَتَمَهُ بعدَ الوصيَّة بطاعةِ الوالِدَيْنِ بذِكْرِ دقيقِ الأعمالِ وجَليلِها، وأنَّها في علمِ اللهِ سُبْحانَه سواءٌ؛ حَسُن الرُّجوع إلى تَمامِ بيانِ حِكْمَتِه، فقالَ اللهُ تَعالى بادِئًا بِما يُناسِبُ ذلكَ مِن دَقيقِ العِلْمِ ومُحيطِه المُكَمِّل لمقامِ التَّوحيد، فقالَ ﷻ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِثۡقَالَ﴾: (ثقل) تدورُ تَصْريفاتُها عَلى ضِدِّ الخِفَّة، ومنهُ سُمِّي الإنسُ والجِنُّ ثَقَلَيْن؛ لكثرةِ العدَدِ، ومنه: أثْقالُ الأرضِ، وهيَ كُنوزُها، كَما في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ٢﴾ [الزلزلة: 2]، وقيل: هي أجسادُ بني آدمَ[2]، والثَّقل: مَتاعُ المسافِر وحشَمُه، والجمعُ: أثْقالٌ.

والمِثْقالُ: وزْنٌ معلومٌ قَدْرُه، ومِثقالُ الشَّيْء: ميزانُه مِن مِثلِه، ومنهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾[3].

2) ﴿خَرۡدَلٖ﴾: الخَرْدَلُ: شجَرٌ لَهُ حَبٌّ صِغار، وهُوَ حارٌّ يابِسٌ[4]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثقل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثقل).
(4) نشوان الحميري، شمس العلوم: (خردل).

وهذا الاسمُ كما يرى ابنُ فارسٍ: اسمٌ وقعَ فيه الاتفاقُ بين العربِ والعجَمِ، وهُوَ موضوعٌ مِنْ غير اشتقاقٍ[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لُطْفُ اللهِ تَعالى بِالعِبادِ وخُبْرُهُ بِأعْمالِهِمْ

يا بنيَّ اعْلَم أنَّ السَّيِّئة أو الحسنَةَ إن كانت قَدْرَ حَبَّة خَرْدَلٍ – وهيَ المُتناهيَةُ في القلَّةِ والصِّغر – في جوفِ جَبَلٍ، أو في أيِّ مكانٍ في السَّماواتِ أو في الأرضِ، فإنَّ اللّهَ ﷻ يأتي بها يومَ القيامَةِ، ويُحاسِب عليها، إنَّ اللّهَ تَعالى لَطيفٌ بِعِبادِهِ خَبيرٌ بأعْمالِهِمْ[2].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى الحثِّ على مراقبة اللّه، والعمل بطاعته، مهما أمكن، والترهيبِ من عمل القبيح، قَلَّ أو كَثُرَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

صِفاتُ العِلْمِ والقُدْرَةِ دالَّةٌ عَلى إفْرادِ اللهِ تَعالى بِالعِبادَةِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِه اسْتِئْنافًا ابتدائيًّا؛ لكونِ المَذْكورِ ابْتِداءَ وصيَّةٍ أُخْرى مِن لُقْمان لِوَلَدِه.

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ قد فُصِلَت؛ لِوُقوعِها استئنافًا بيانيًّا، فقد وردت جوابًا عَن سُؤال مقدَّرٍ سألَهُ عنه ولدُه؛ وذلك لأنَّه لَمّا أوصاهُ بتَوْحيدِ اللّهِ سُبْحانَهُ ونَفْيِ الشِّرك عنهُ؛ سألَهُ عَن أوصافِهِ مِنَ العِلْمِ والقُدْرَةِ، فأجابَهُ بـ ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾[4].

فائِدَةُ تَكْرارِ النِّداءِ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ وغَرَضُهُ:

إظْهارُ التَّحَبُّبِ في الوَعْظِ أدْعى لِقَبولِهِ

كُرِّر النِّداء بالبُنُوَّة ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ من قول اللّهِ سُبْحانَه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ لتجديدِ نشاطِ السّامع قَصْدًا إلى إدراكِ الكلامِ ووعيِه[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خردل).
(2) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسر، ص: 412.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 251.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 270.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.

والغرَضُ مِن النِّداء التَّحبُّب والاستعطافُ، كما يَدُلُّ عليه تَصْغيرُ لفظ البُنُوَّةِ وإضافتُه إلى ضمير المُتَكلِّم؛ ليكونَ ذلك أدْعى إلى قبولِ النُّصحِ الوارد بعدَ النِّداء[1].

نُكْتَةُ التَّوْكيدِ في ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تَعالى وعُمومُ قُدْرَتِهِ

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ تأكيدٌ بـ (إنَّ) وبضميرِ القِصَّة، والنِّداءُ قبلَهُما ضربٌ مِن ضُروب التَّوكيد، وحَشْدُ هذهِ المُؤَكِّدات مناسِبٌ لِعِظَمِ خَطَرِ المذكورِ بعدُ مِن تَقْريرِ وصفِ اللهِ سُبْحانَهُ بالعِلْمِ المُحيط بجَميعِ المَعْلوماتِ، ووصفه تَعالى بالقُدْرَةِ الكاملَةِ المُحيطَة بِجَميعِ المُمْكِناتِ[2].

دِلالَةُ تَأْنيثِ الضَّمائِرِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ﴾:

التَّأْنيثُ لِمُراعاة مَقامِ التَّقْليلِ

أُنِّثت الضَّمائرُ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾، وإن كان المِثْقالُ مُذَكَّرًا؛ لكَوْنِه أُضيفَ إلى مُؤَنَّثٍ، وهُو لفظُ ﴿حَبَّةٍ﴾، فاكْتَسَبَ اللَّفظ تأنيثًا مِنَ المُضاف إليه[3].

وفي إيثارِ التَّأنيثِ مُراعاةٌ لِمَقامِ التَّقليل والتَّحقير؛ إذِ التَّأنيثُ أولى بذلكَ، ولأنَّ ذلك يُؤَوَّلُ بالطّاعة والمعصيَةِ أو الحسنَةِ والسَّيِّئة، وهي ألفاظٌ مؤنَّثةٌ، فكان في التَّأنيث مُراعاةٌ لِلمَعْنى[4].

سرُّ التَّعْبيرِ بِـ ﴿إِن﴾ دونَ (إذا):

التَّنْصيصُ عَلى شُمولِ عِلْمِ اللهِ تَعالى

﴿إِن﴾ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ شرطيَّةٌ، كما قالَ السَّمينُ الحلبيُّ: "والجملةُ الشَّرطيَّةُ مفسِّرةٌ للضَّميرِ"[5]، وإيثار ﴿إِن﴾، وهي تدلُّ في الأصل على الشَّكِّ في وُقوعِ مَدْخولِها دون (إذا) الدّالَّة على القَطْعِ والجَزْمِ بِوُقوع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 72، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 64.

مَدْخولِها؛ لِما تُفيدُهُ ﴿إِن﴾ في هذا السّياق مِن أنَّ مَضْمونَ ما بعدَها مِن شأنِه أن يُتَوَهَّم تخلُّفُ الحكم عنهُ، فإذا نُصَّ على شُمولِ الحُكْم إيّاه؛ عُلِمَ أنَّ شُمولَه لِما عَداه بطَريقِ الأحرويَّة والأولويَّةِ، وهذا يَقْتَضي أنَّ الشَّرْطَ المَذْكورَ بعدُ شرطٌ مُفْتَرض، وذلك غايةُ ما يُتوقَّع معَهُ انْتِفاءُ الحُكْم[1].

نُكْتَةُ التَّخْفيفِ بِالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿تَكُ﴾:

التَّنْبيهُ عَلى أصْغَرِ الكَوْنِ وأقَلِّهِ

حُذِفَت النّون من ﴿تَكُ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ تخفيفًا، ولِقَصْدِ الإيجازِ في الوَصيَّة بِما يُحصِّل المَفاز، وللدَّلالَةِ عَلى أصْغَرِ الكَوْنِ وأقلِّه[2].

تَوْجيهُ القِراءاتِ المُتَواتِرَةِ في قَوْلِهِ: ﴿مِثْقَالَ﴾:

التَّكامُلُ الدِّلالِيُّ لِلقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ

قُرِئَ لفظُ ﴿مِثْقَالَ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ بالرَّفع والنَّصب، فقَرأها بالرفع نافِعٌ وأبو جَعْفَر، وباقي العشَرَةِ بالنَّصْب[3].

فقِراءةُ النَّصب على أنَّ (كانَ) ناقصةٌ، واسمها ضميرٌ مُسْتَترٌ، و﴿مِثْقَالَ﴾ خبرها، وهذا يقتضي الدِّلالة على أقَلِّ الكَوْنِ وأصْغَره وأحقرِه.

وقراءةُ الرَّفع على أنَّ (كانَ) تامَّة، والمَعْنى: (إنَّها إن توجَد مثقالُ حبَّة في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ هيَ أصغَرُ شيءٍ وأقلُّهُ)[4].

نُكْتَةُ إضافَةِ ﴿مِثْقَالَ﴾ إلى ﴿حَبَّةٍ﴾:

تَفْسيرُ المِثْقالِ وبَيانُ حَقارَتِهِ

في إضافَةِ ﴿مِثْقَالَ﴾ إلى ﴿حَبَّةٍ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ لقصد البيانِ؛ إذ لفظُ المثقالِ دالٌّ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 85، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغية، ص: 1609.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 71.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 324.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 162.

مقدارٍ مُبْهَم، لا تُدرى حقيقتُهُ إلّا بإضافَتِه إلى ما يبيِّنُهُ، ويوضِّحه، فلَمّا جاء التَّعبير القرآنيُّ: ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾؛ كان في هذا نوعُ بيانٍ، وتقليلٌ لِهَذا المِثْقالِ وتحقيرٌ لَهُ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿خَرْدَلٍ﴾:

التَّنْبيهُ بِالأدْنى عَنِ الأعْلى

اختير التَّعبيرُ بِلَفْظِ ﴿خَرْدَلٍ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾؛ لأنَّ الخردلَ من أصغرِ الحبوبِ، ولا يُدرك ثِقَلُ الحبَّة منْهُ بالحسِّ، ولا أثر لها في تَرْجيح الميزانِ، فكانَ في التَّعبير بالحبَّة منهُ تنبيهٌ بالأدنى عَنِ الأعْلى[2].

عِلَّةُ تَنْكيرِ ﴿حَبَّةٍ﴾ و﴿خَرْدَلٍ﴾ و﴿صَخْرَةٍ﴾:

فـي التَّنْكيرِ مَعْنى العُمومِ والتَّحْقيرِ

نُكِّرَ لفظُ ﴿حَبَّةٍ﴾ و﴿خَرْدَلٍ﴾ و﴿صَخْرَةٍ﴾ من قولِ اللّهِ سُبْحانَه: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ لإرادة التَّعميم؛ لكونِ هذهِ الألفاظِ المنكَّرة واردةً في سياق الشَّرطِ وذلك من ألْفاظِ العُموم، وفيهِ مَعْنى التَّحقير والتَّصْغير أيضًا؛ ليكونَ ذلكَ من بابِ التَّنبيهِ بالأدْنى عَنِ الأعْلى[3].

دلالةُ ﴿مِّنْ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مِّنْ خَرْدَلٍ﴾:

البَيانُ بَعْدَ الإبْهامِ أوقَعُ في النَّفْسِ وأثْبَتُ

جاء التَّعْبيرُ القُرآنيُّ: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ دون (حَبَّةِ خَرْدَلٍ)؛ لإرادةِ البيان والتَّخْصيص بعدَ الإبهام، وذلك أوقَعُ في النَّفس، وأثبَتُ في الذِّهن، فهُو نظيرُ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]؛ إذْ لَم يَرِد في البيان القُرآنيِّ: (قواعدَ البَيْتِ)، فـ﴿مِّنْ﴾ يُراد بها البيانُ؛ لِما في لَفْظِ ﴿حَبَّةٍ﴾ منَ الإبْهام[4].

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَتَكُن﴾:

عُمومُ عِلْمِ الله تعالى وإحاطته بالخلق

الفاءُ في ﴿فَتَكُن﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171.
(2) القِنوجي، فتح البيان: 10/ 286.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 270.

خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾؛ للاتِّصال بالتَّعقيبِ، فَتَكونُ مفيدَةً الاجتِماعَ، أي: إنْ كانَتِ الحبَّةُ صغيرَةً، ومعَ صِغَرِها تكونُ خفيَّة في مَوْضِعٍ حَريزٍ كالصَّخْرَةِ، فإنَّ ذلك لا يَخْفى عَلى اللهِ سُبْحانَهُ؛ لِعُمومِ عِلْمِه وإحاطَتِه بالكائِناتِ[1].

نُكْتَةُ إثْباتِ النّونِ في ﴿فَتَكُن﴾:

الإيماءُ إلى أصْغَرِ كَوْنٍ وأقَلِّهِ

أُثْبِتَت النّون في ﴿فَتَكُن﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانه: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾؛ للإشارة إلى ثَبات الحبَّة في مَكانِها، بعد أن حُذِفَتِ النّون في ﴿تَكُ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾؛ للإيماءِ إلى أصْغَرِ كَوْنٍ وأقلِّه، وفي ذلك زيادةٌ لتَشَوُّفِ النَّفْسِ إلى مَحَطِّ الفائِدَةِ وذهابِ الذِّهْنِ كُلَّ مذهبٍ؛ لِما تقرَّر مِن أنَّ المَقْصَدَ عظيمٌ بحذفِ النّون مرَّةً وإثباتِها مرَّةً أُخْرى[2].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾:

الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ متعلِّقانِ بمحذوفٍ خبرٌ لـ ﴿فَتَكُن﴾[3]، والتَّقدير: فتَكُنْ مستقِرَّةً في صَخْرَةٍ.

دِلالَةُ الظَّرْفيَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾:

لا يَخْفى عَلى اللهِ سُبْحانَهُ شَيْءٌ مَهما كانَ حِرْزُهُ

الظَّرفيَّةُ التي دلَّ عليها حرفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ مِن قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ مفيدةٌ أنَّ الحبَّةَ وإنْ كانَت في موضعٍ شديدٍ حِرْزُهُ كالصَّخْرَةِ، فإنَّ ذلك لا يَخْفى عِلْمُهُ عَلى اللّهِ ﷻ[4].

(1) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 120/ 121.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 171 - 172.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 543.
(4) الفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 120.

مَعْنى ﴿أَوْ﴾:

بَيانُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ ﷻ

﴿أَوْ﴾ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يُرادُ بِها التَّنويعُ المُقْتَضي عُمومَ عِلْمِ اللهِ تَعالى بأصْغَرِ شَيْءٍ وأقَلِّه مَهْما كانَ مكانُه المُحْرَزُ فيه.

دِلالَةُ الظَّرْفِيَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

تأكيدُ إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِالأشْياءِ مَهْما بَعُدَتْ

الظَّرفيَّة المستفادَةُ من ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تَقْتَضي الإشارَةَ إلى البُعْدِ؛ إذِ السَّماواتُ أبعدُ الأبْعادِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى عُمومِ عِلْمِ اللهِ تعالى، ولو بَعُدَتِ الأشياءُ بالنِّسبةِ لِبَني آدَمَ، فالمَعْنى: يَعْلَمُ اللهُ تَعالى مقدارَ الحبَّةِ، ولو كانَت في أيِّ مكانٍ مِن السَّماواتِ على سعَةِ أرجائِها وتَباعُدِ أنْحائِها[1].

نُكْتَةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفْرادِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تَصَرُّفُ النَّظْمِ القُرْآنيِّ في الألْفاظِ جَمْعًا وإفْرادًا بِما يُحَقِّقُ جَزالَتَهُ وانْسيابَهُ

لم تُجْمَعِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ كما جُمِعَت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، بَلْ لَمْ تَرِدْ لفظَةُ (الأرْض) مجموعَةً في القرآنِ الكريمِ مُطْلقًا، فالسَّماءُ إذا ذُكِرَت مجموعَةً؛ جيءَ بلفظِ الأرضِ مُفْرَدًا في جميعِ مواضِعِها، وعُدِلَ عن الجَمْعِ لِثِقَلِهِ وللجُسْأةِ التي تعرِضُ للَّفْظِ حتَّى إنَّ النَّظْمَ لَيَخْتَلُّ بسببِ ذلك[2].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الإيماءُ إلى عُمومِ بِقاعِ الأرْضِ

(أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المندرجةِ في لَفْظِها، وهيَ شامِلَةٌ لكلِّ ما يقَعُ عليهِ هَذا اللَّفْظُ، فيدخُلُ في لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جميعُ أرجائِها وأنْحائِها، ويَدْخُل في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ الأرضُونَ السَّبْعُ كُلُّها[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172، والفخر الرازي، التفسير الكبير: 25/ 120.

(2) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 160.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.

نُكْتَةُ تَقْديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عَلى ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تَفَنُّنُ البَيانِ القُرْآنيِّ في الألْفاظِ تَقْديمًا وتَأْخيرًا

رُتِّبت الظُّروف في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على نحوٍ بديعٍ، فبُدئ بِكَيْنونَةِ الشَّيء في صخرةٍ، وهُوَ ما صلُبَ مِنَ الحجَرِ، وعَسُرَ الإخراجُ مِنْهُ، ثُمَّ أتْبَعَهُ بالسَّماوات، وهي عالَمٌ عُلْويٌّ، وذلك أغرَبُ للسّامعِ، ثُمَّ أخَّر ذِكْرَ الأرضِ، وهيَ مقَرُّ الأشياءِ للشّاهِدِ[1].

دِلالَةُ تَكْرارِ ﴿أَوْ﴾:

تَقْويةُ المَعْنى وتَأْكيدُهُ

أُعيدَ حَرْفُ العَطْفِ ﴿أَوْ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للتَّنْصيصِ عَلى إرادَةِ كُلٍّ مِنْهُما عَلى حِدَتِه، وأُعيدَ الجارُّ ﴿فِي﴾ أيضًا تأكيدًا لِلمَعْنى وتَقْويةً لَهُ[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الصَّخْرَةِ عَلى السَّماواتِ والأرْضِ:

عُمومُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِجَميعِ الأمْكِنَةِ الأرْضيَّةِ والسَّماويَّةِ

بُدِئَ بذِكْرِ الصَّخرة في قولِ اللّه تَعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّها أحرَزُ جُزْءٍ من أجزاءِ الأرْضِ، وهيَ قريبةٌ مِن فَهْمِ الإنسانِ وإدراكِه، وذُكِرَتْ بعدَها السَّماواتُ عَلى مَعْنى: أو كانَت في أعَزِّ مكانٍ منالًا مِنَ الصَّخْرَة، ثُمَّ ذُكِرَتْ بعدَها الأرْضُ، وإن كانَتِ الصَّخْرَة جُزْءًا منْها؛ لقَصْدِ تَعْميمِ الأمْكِنَةِ الأرْضيَّة؛ إذِ الظَّرفيَّة تَصْدُقُ بِهما، والمَقْصودُ أنَّ ذلك كلَّهُ سواءٌ في جانبِ عِلْمِ اللّهِ سُبْحانَه وقُدْرَتِه، فكأنَّه قال: فتَكُنْ في صَخْرَةٍ، أو حَيْثُ كانَت مِنَ العالَمِ عُلْويًّا كانَ أو سُفْليًّا[3].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿يَأْتِ﴾:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ وشُمولُهُ

الفِعْلُ ﴿يَأْتِ﴾ مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فعلٌ مضارِعٌ مجزومٌ، وهُو جوابُ الشَّرْطِ، وجزاؤُهُ للشَّرْطِ المَذْكورِ قبلُ في قولِهِ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 87.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 163.

﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، وهذا الجوابُ مبنيٌّ على فَرْضِ كونِ مِثْقالِ الحبَّة في الأماكِنِ المَخْفيَّة والبعيدَة، والمقصودُ بيانُ عُمومِ علمِ اللهِ سُبْحانَهُ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾:

ذِكْرُ دَليلِ العِلْمِ والقُدْرَةِ

في التَّعبيرِ بالإتْيانِ من قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، كنايَةٌ عَنِ التَّمكُّن منْها، وهُو أيضًا كنايَةٌ رَمْزيَّة عن إحاطَةِ العِلْمِ بها؛ وذلك لأنَّ الإتيانَ بأدَقِّ الأجسامِ من أصْلَبِ الأمْكِنَةِ وأقْصاها وأعْمَقِها لا يكونُ إلّا عَن عِلْمٍ بِكَوْنِها في ذلكَ المَكان، وعلمٍ بوسائِلِ اسْتِخْراجِها منْهُ[1].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاسْمِ الأحْسَنِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عَظَمَةُ أوصافِ اللهِ تَعالى

جاء التَّعبيرُ بالاسْمِ الأحْسَن ﴿ٱللَّهُ﴾، من قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، وهُو الاسمُ الجامِعُ لمَعاني الجلالِ والجَمال والكمالِ؛ لِبَيانِ عَظَمَة هذا الإتيانِ وعُمومِ الإحاطَةِ، فَلا يَخْفى على اللهِ سبحانَهُ شَيْءٌ[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿بِهَا﴾:

التَّنْبيهُ بِالأدْنى عَلى الأعْلى

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهَا﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾؛ لإرادة الاهْتِمام لا لِقَصْدِ التَّخصيص؛ إذِ اللهُ سُبْحانَهُ لا يختَصُّ إتْيانُهُ بالأشياءِ بِمِثْقالِ الحبَّةِ، ولَكِنَّ هذا التَّقديم للاهتمامِ بالمَذْكورِ قَبْلُ، وهُوَ من أدَقِّ الأشياءِ وأصْغَرِها في خَفيِّ الأماكِنِ وبَعيدِها، فإذا كانَ يَأتي بِذَلِكَ؛ فإتْيانُهُ بما هُو أعظَمُ وأظْهَرُ من بابٍ أولى وأحْرى.

عِلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ عمّا قَبْلَه:

خَتْمُ الآيَةِ بِما هُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّتيجَةِ بَعْدَ دَليلِها

فُصِلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ عمّا قَبْلَهُ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 163.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.

لِوُقوعِهِ تَعليلًا لِما تَقَدَّم مِن بيانِ عُمومِ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ وعظيمِ قُدْرَتِهِ[1].

ويجوزُ أن يَكونَ فَصْلُ هذهِ الجُمْلَةِ؛ لِكَوْنِها بِمَنْزِلَةِ النَّتيجةِ منَ الدَّليل، والنَّتيجةُ كبدَلِ الاشْتِمال يشتَمِلُ القياسُ عليها، واختارَ هذا ابنُ عاشورٍ، واعْتَرَضَ على اعْتِبار الآيةِ تعليلًا بأنَّ مقامَ تعليم لقمان ابنَهُ يقتَضي جَهْلَ الابنِ بِهَذِهِ الحقائقِ، ومِن شَرْطِ التَّعليل أَن يكونَ مُسَلَّمًا معلومًا قبلَ العِلْمِ بالمعلَّلِ؛ ليصحَّ الاستدلالُ به[2].

تَعْيينُ قائِلِ جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ تَحتَمِلُ أن تكونَ مِن تمام كلام لُقْمان في وصيَّته لابنِهِ، فتَكونَ بِمَنْزِلَة المَقْصد مِنَ المقدِّمة، أو النَّتيجةِ مِنَ الدَّليل.

تَعْليمُ اللهِ تَعالى عِبادَهُ المُسْلِمينَ

ويجوزُ أن تكونَ جملةً مُعْتَرِضةً بين كلام لُقْمان ووصيَّته ابنَهُ، والغرضُ مِنَ هذا الاعتراضِ تعليمُ اللهِ سُبْحانَهُ المُسْلِمينَ[3].

غَرَضُ التَّأكيدِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

في تأكيدِ قولِ اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملةِ إيماءٌ إلى أنَّ إنكارَ ما تضمَّنَتْهُ هذه الجملةُ مِن لُطْفِ اللهِ تعالى وخُبْرِهِ من دأبِ النُّفوس التي لم يَصْحَبْها التَّوفيقُ الإلهيُّ[4].

دَأْبُ النُّفوسِ غَيْرِ المُوَفَّقَةِ إنْكارُ لُطْفِ اللهِ تَعالى وخُبْرِهِ

نُكْتَةُ تَذْييلِ الآيَةِ بِالاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ:

لمّا قالَ اللهُ تَعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ وقَعَ لابْنِ لُقْمان أنَّ ما يُفْعَلُ في الخفاءِ لا يُعْلَمُ، فقال: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾، والمقصودُ: الإعلامُ بأنَّ اللهَ سُبْحانَهُ يَعْلَمُ بواطنَ الأمورِ الخفيَّة والدَّقيقة، ولذلك وصفَ اللهُ سُبْحانَهُ نفسَهُ باللَّطيف

تَقْريرُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِدَقائِقِ الأشْياءِ وبَواطِنِها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 164.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 172.

– ومِن معانيهِ: نافذُ القُدْرَةِ – وبالخبيرِ: وهُوَ العالِم بِبواطِن الأُمور ودقائِقِها، وفي ذلكَ تأكيدٌ وتقريرٌ لعِلْمِهِ تَعالى بدَقائِقِ الأَشْياءِ وبَواطِنها، وكانت هذه الفاصِلَةُ حاملةً في طَيّاتِها مَعْنى التَّرجّي والتَّخويف، إضافةً إلى بيانِ عُموم قُدْرَتِه وعِلْمِه سُبْحانَه[1].

غرضُ تَنْكيرِ الاسْمَيْنِ الجَليلَيْنِ:

كَمالُ أوصافِ اللهِ ﷻ

نُكِّر الاسمانِ الجَليلان مِن قولِ اللّه تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ تعظيمًا لمَدْلولِهما، فاللّهُ سُبْحانَهُ لَهُ مِن جلالِ اللُّطف وسعَةِ الخُبْرِ ما لا مُنْتَهى لِكَمالِهما.

دِلالَةُ صيَغِ المُبالَغَةِ في الاسْمَيْنِ الكَريمَيْنِ:

جَلالَةُ لُطْفِ اللهِ تَعالى وخُبْرِهِ

في ذِكْرِ الاسْمَيْنِ الكَريمَين الواردَيْن في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بصيغةِ المُبالغَة على زِنَةِ (فَعيل)، فيهما إيماءٌ إلى جلالةِ ما تضَمَّناهُ مِنَ الأوصافِ وسَعتِها وعَظَمَتِها، وهيَ وصْفُ اللُّطْفِ، ووَصْفُ الخُبْرِ والخِبْرَةِ.

(1) فاطمة محمد شلدان، المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها، ص: 55.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»